قسطاس الحق

آراء أساطين الفلسفة في كل أدوارها

في ما فوق الحس

لحنا عبار

تنحصر المذاهب الفلسفية الكبرى في ما لا يكاد يتجاوز عدد الاصابع

الاول: المذهب المادّي Materialism وقد يدعى الحسّي او الاختباري Empirism واضع اصوله دمقريطوس. تلاه أبيقوريُّون وفي العصر الحديث الانسكلوبيديون لامتري وهولباخ وزملاؤهم

الثاني: المذهب الروحي Spiritualism أسس هذا المذهب فيثاغورس ومن أشهر دعاته بوكين الشهير

الثالث: المذهب النفعي Egoism - Utilitarianism وضعهُ اريستيبوس. تلاهُ فيه القورينيون ومن أشهر رافعي علمه في العصر الحديث بانتام

الرابع: المذهب التصوري Idealism مؤسسه الاول افلاطون. وواضع قواعده في العصر الحديث كنت العظيم وخلفاؤه شالنغ ولاسن وهيغل

الخامس: المذهب العملي Pragmatism يُرى اصوله في اريسطوطاليس. وقد نظمهُ المحدثون في اميركا ديوي وشلر وهو ينسب الى وليم جيمس

السادس: مذهب أُلوهية الكون او المذهب الحلولي Pantheism يرى اصوله في زينوفانس وطاليس. ولكن ناظمهُ هندسيًّا هو سبينوزا. وتبعهُ فيه نوعاً مالبرانش

السابع: المذهب النشوئي Evolutionism واضعه هربرت سبنسر. وقد عارضهُ هنري برغسن فجعله مذهب النشوء الخالق Creative Evolutionism

الثامن: المذهب الارتيابي Scepticism اول من قال بالارتياب هو زينون اليوناني ولكن منظم قواعده الرسمي هو بيرهون

التاسع: المذهب التقليدي لواضعه لامبي

العاشر: المذهب اللا ادري Agnosticism ويجوز ان يطلق هذا الاسم على فلسفة سبنسر. ولكن واضع هذا الاسم هو هكسلي

هذي هي اشهر المذاهب الفلسفية . ولكل منها قسطاس للحق ، سنراه في عرض هذي المقالة

امامنا في هذا البحث مسألتان — الاولى : هل يوجد حق مطلق ؟ — الثانية : ما هو قسطاس ذلك الحق ، او ميزانه ، ان وُجد

هي مسألة الفلسفة . مسألة الاجماع الانساني . مسألة المسائل . مسألة الادهار . في العلم ، في الشرع ، في الاخلاق ، في كل شيء . ما هو الحق ؟ وكيف نؤكد انهُ حق ؟

قال نيتشه Nietzsche ان جملة واحدة فقط في كل الانجيل تستحق الاعتبار وهي قول بيلاطس : ما هو الحق ؟ يوافقهُ في ذلك افلاطون فرنس قائلاً انها اعظم مسألة عرضت في كل التاريخ

المنطق الصحيح هو رائدنا الى الحق . اما اخذنا عن الحق فليس من المنطق الصحيح في شيء بل هو سفسطة . وفي هذا النوع من المنطق قالوا : من تمنطق فقد تزندق : فالزنادقة هم الذين يعوّجون احكام المنطق . فيجعلون البُطل حقًّا والحق بطلاً . فتخذوا المنطق مطية لاهوائهم

ما هو الحق ؟ ما مصدر المعرفة ؟ قال السفسطائيون (المغالطون) اسلاف سقراط ان الحواس مصدر المعرفة . وجاراهم في ذلك المفكر الانكليزي « لوك » فقال : ليس في العقل ما لم يكن قبلاً في الحواس

ولكن افلاطون دفع ذلك قائلاً اذا كانت الحواس قسطاس الحق فليس من حق على الاطلاق . لان احكام الحواس تختلف في مختلف الاشخاص ومختلف الاحوال . ولو ان الحواس قسطاس الحق لما كان ثمة فرق بين الانسان والسمدان . لان لهذا حواسٌ كذلك . فقسطاس الحق عند افلاطون هو الذهن Reason وعنده ان نسبة الذهن الى الحواس كنسبة الحكومة المدنية الى عامة الناس . فيأخذ الذهن تقارير الحواس وينظر فيها ، ويمحصها ، ثم يصدر حكمهُ فيها

وقفّى اريسطوطاليس على آثار استاذهِ افلاطون فوضع فن القياس الذي يدعوه المنطق Logic لتمييز الحق من البطل . ويتألف القياس عندهُ من ثلاث قضايا ، هي المقدمتان والنتيجة . مثاله :

أ : الانسان حيوان ناطق — ب : سقراط انسان — ج : فسقراط حيوان ناطق

هذي صورة من صور القياس

فعارضهُ يبرهون منكراً صحة استنتاجه قال : لا تصح مقدمتك الكبرى : أنت سقراط انسان : ما لم يثبت أولاً أنهُ حيوان ناطق . وتعليق المقدمة على نتيجة ، وهذي على تلك هو الدور المنطقي . فيبطل يبرهون القياس . ويرى ان لا سبيل الى ادراك حقيقة في الكون . فيقول أبيقور : نرجع اذن الى السفسطائيين . ونجعل الحواس أصل المعرفة . فيردُّ عليهِ الارتيابي قائلاً كيف يمكنك أن تعتمد شهادة الحواس وهي خادعة . فانها تريك الشمس كرة صغيرة وهي أكبر من بلاد اليونان ! وتريك النجوم كحبات الحمص وهي أكبر من ذلك كثيراً . والنتيجة ان ليس من حق في الكون ، او أننا لا نقدر ان نؤكد حقًّا ، بشهادة الحواس . وظلت مسألة شهادة

الحواس شغلاً شاغلاً في ميادين التفكير اليونانية والرومانية حتى أخذ الريفان الميدان أمام المدرسية وحينذاك أقبلت زوابع أبيقور والسفسطائيين أمام العقيدة المقدسة الفاضية بخضوع الحواس للإدراك واقتفى المدرسيون — وهم فلاسفة العصور الوسطى — آثار أفلاطون وأرسطوطاليس في اعتبار الذهن قسطاساً للحق دون الحواس ذلك على الرغم من تعريفهم الحق بأنه مطابق الواقع في الخارج . فكانت المُثُل عندهم أثبت من الأشياء المرئية لأن هذي عارضة وتلك خالدة . فقد كانت المُثُل قبل وجود الأشياء ، وهي فيها حال وجودها وستبقى بعد فنائها . فالخيال رسخ قدماً في ميدان الوجود من الجميل . والانسانية أثبت كوناً من الفرد الانساني أيًّا كان

سيطرت فلسفة أرسطوطاليس على الكنيسة في الجانب الأكبر من الأحيان الوسطى . حتى أن ديكارت زعيم المحدثين في الفلسفة ، مع كونه رافعاً علم الحرية ، كان هو نفسه عبداً لها فأنكر شهادة الحواس في اثبات الحق

ولكن العصر الحديث استهل إعادة الحواس الى عرش مجدها في العلم بغاليليو ، وفي الفلسفة بفرنسيس باكن . فوسّع العالم (بكسر اللام) نطاق الحواس بالآلات التي استنبطها ، ورفع الفيلسوف قدر العقل بالملاحظة . وعلى من رام الاضلاع من فن المنطق بكتاب فرنسيس باكن المدعو Novum Organum « نوفم ارجنوم » او القانون الجديد . ترى المنطق في هذا الكتاب مبارزة ، يجول الذهن في ميدانها ويصول ، رامياً الى اقتناص الحقيقة بالاستقراء . قال باكن في مقدمة ذلك الكتاب :— الانسان كاهن الطبيعة وشارحها . فيصل ويفهم بقياس ما تأذن له ملاحظته الضيقة

من ثم نشبت الحرب بين انكلترا في الجانب الواحد وبين القارة الاوربية في الجانب الآخر ففي الجهة الاوربية قيّد ليبنتز وكنت وهيجل وشانع ونفت الحواس بقيود الريب ونزعوا منها كل ثقة في شهادتها للحق . وفي الجهة الانكليزية هوبس وباكن وجون ستوارت مل نشدوا وقاحة الذهن في تصديه لمعارضة شهادة الحواس . فكر عليهم كنت قائلاً ان قوانين الرياضة Mathematics مستقلة عن شهادة الاختبار استقلالاً كليًّا . ولذا يدعوها سامية أو فائقة Transcendent فان قضية ٢ × ٢ = ٤ مفهومة بداهةً a priori فكر عليه جون ستوارت مل كرة جوابية قائلاً : ان حكمنا بأن ٢ × ٢ = ٤ لم تكن الا نتيجة اختبار متوالٍ طويلاً فليس هو بديهيًّا ، ولا فوق شهادة الحواس

بعد ذلك انقلبت الاوضاع ، فمات المبدأ البديهي في القارة وتقمص في انكلترا . فصارت القارة حواسيةً وانكلترا بديهية . يذكر ذلك بحديث اثنين مؤمن وكافر ، تناقشا في أمر الدين وكان كل منهما يرمي الى تأييد رأيه . المؤمن يبرهن على صحة الدين بما أوتي من حجة . والكافر يدلي بما عنده لدحض مزاعم المؤمن وتأييد الكفر . وانتهى الامر بينهما ان كلاً منهما اقتنع بصحة رأي خصمه . فآمن الكافر ، وكفر المؤمن . هذا كان شأن الحسيين والذهنيين في

وروبا كلها . فخرجت اوربا عن المبدأ القديم الى الحسي . وانصرفت انكلترا عن هسبز الى ذاك . فسبنوزا فكر كتب وزنه وخلقه على مثال الاكليزي فنري يردني بعدم الاختبار كل قيمة . وبوركيه يرد القطع الى الاستنتاج . ثم يعرف الاستنتاج تعريفاً الغازيًّا . وسنج يرى رجل القطع من كونه عدم التفكير . ويقول انهُ عدم التجريدات الأتم . ووافق الاستاذ هويهد في استقلال الاستدلال الرياضي Mathematic deduction عن الاختبار

وبناء على انحياض الامريكيين من التجريد قال وليم جيمس ان الغموض ليس هو جمال الفلسفة . وان معنى الحقيقة بسيط الى حد يحير لنا ايرادها بألفاظ مفهومة حتى عند ارباب الاعمال . وانه جعل العمل قسطاس الحق ووجه جانب الاهتمام الى الاشياء دون المثل

ورأى جون ديوي ان الفكر آلة كغيره من الآلات كالمعدة والعين والاطراف . فهو آلة الفهم وآلة ادارته . فجدد المذهب الحسي شبابه في امريكا

البرغماتزم Pragmatism اسم جديد لطريقة تفكير قديمة . وليس هو الا نشر نظرية فرنسيس باكن الغائية : القانون الاعظم عمليًّا هو اعظم نظريًّا . وذلك مبدأ باتام نفسه : ان المنفعة قسطاس كل شيء

للبرغماتزم عيوب جمة . منها حمل النفوس القوية على التوهم ان رغباتهم «حق» اذا ضمنت لهم البطانة ضد قسوة الدنيا . ولكن البرغماتزم لا يعنى بمصلحة الفرد ، بل بالمصلحة العامة . فزعم الجاهل ان المبدأ الفلاني حق لان نفعه هو الخطأ . وربما كان كما قال بتشه : اضع انواع الخطأ . فنرانا مدفوعين الى رأي السفسطائيين ونتيجتنا نتيجتهم : ان الحواس قسطاس الحق : ولكن الحواس بمجموعها ، لا واحدة منها فقط . فقد تخدعنا الحاسة الواحدة فنستعين على اصلاحها بأختها

كما تخدعنا المسافة في امر الحجم ، وكما تخدعنا العين في امر اللون . فالحق هو شعور مطابق ولكن ذلك الشعور يجب ان يستند الى كل ما عرفنا من الآلات التي توسع مدى الحس كالمكرسكوب والتلسكوب والسبكترسكوب والصفائح الحساسة وأشعة إكس ، هذي آلات توسع نطاق البصر . كذلك الآلات التي توسع نطاق السمع كالتلفون والراديو والميكروفون

يضاف الى ما ذكر الحس الباطن subjectivism وهو تلك الحاسة الداخلية التي بها نشعر بحياتنا وعقلنا . هي ثقة كثيرها من الحواس والتقارير الواردة الى العقل من الحواس التي تصلنا بالعالم الخارجي فاننا لا نعرف شيئاً في الكون كما نعرف انفسنا

لا شك في ان الحواس لا تتناول اليقين ولا الحياة . فلقد أصاب هيوم كبد الحقيقة لما قال : ان الحواس لا تتناول السببية ولا العلية . انما وظيفتها مقتصرة على السابقة . فلا نقدر أن نؤكد ان الحرف « ج » يلي الحرب « ب » مطرداً كما في كلمة « ابجد » . نحن مرغمون على

الاهتمام بالارجحية . ولكن المنطقي يطلب ما هو أكثر من الارجحية يطلب حكماً مبرماً وتجريدات مطلقة : الغلب حلو وهذا غلب . فهذا حلو أبداً هو لسان المنطق

في الدنيا تباين عظيم . وعلينا ان نحسب الحق نوعيةً وارجحيةً . ليس للمطلق من وجود . ليس الا النسبي فيلزم إن نأخذ النسبية في حكمنا . لان في الدنيا اختلافاً عبثاً . وعقولاً غير عقولنا . وقد تباين حواسهم حواسنا وحكمهم حكمنا فيكون الحق عندنا غيره عنده

قالت السنيورا سيني في رواية بيرانديللو : اني اصدق ما أراه بعيني وألمسه بأصابعي . فكان الرد على ذلك من لوريزي يجب أن تحترمي بصر الآخرين ولمسهم ، ولو انه ضد ما تنظرين في خط مستقيم

فحيث وجد أكثر من شخص واحد وجب ان يكون الحق مطابقاً . وحيث تعددت العصور وجب ان يكون الحق مطابقاً بالاستمرار فان البقين قبة مؤلفة من قطع زجاج مختلفة الالوان كالاحمر والاخضر والاصفر الخ ، وكل واحد يرى قطعة واحدة من موقفه ، فيحسب ان القبة كلها من ذلك اللون . الواحد يرى ان القبة مؤلفة من زجاج أحمر . والآخر من زجاج أصفر ، وهكذا . فتختلف الاحكام في مختلف المواقف ومختلف الاشخاص . وقد تكون الحقيقة خداعاً المشترك واليقين خطأ الاجماعي . فاهي وظيفة الذهن في منطقنا الذي يلائم اعظم رجار الشارع تحيزاً ؟

الجواب : ان وظيفة الذهن هي ان يساعد في حبك الصورات تصوراً ، والتصورات معرفة ، والمعارف حكمة . وجعل المقاصد شخصية ، والشخصيات حية اجتماعية ، والحية الاجتماعية سلاماً . فيدان الذهن في اقتناص الحقيقة ثانوي ، لكنه حيوي . لان عليه ان يتناول المتناقضات والفوضى الناشئة عن تنوع الحواس ، فيلائم بين اجزائها بحيث تتجه في متجه واحد ، في تصديق الخبر او تكذيبه . ولا يبلغ الذهن من اليقين نصف مبلغ الحواس . وبرغم هذا ادركنا بالفهم يمكننا ان نستنتج دون ادنى ريب

كل خطوة استدلالية تبعدنا عن الحس هي خافضة « مستوى » الارجحية في امر الحق . فعلينا ان نؤلف بين مختلف الحواس والآراء اذا رمنا توسيع نطاق التفاهم بيننا ، وكما هو الامر في الفلسفة والحكمة والجمال كذلك في الحق ، يلزم اعتبار تلاؤم الاجزاء في الكل . فالحس تثبت اقدامنا على سطح الكرة . وبالذهن نتمادى ببصيرتنا الى ما وراء حدود الباصرة . وباتساع نطاق الحاسة ندرك حقاً جديداً . فالحس قسطاس الحق . ولكن الذهن مكتشف الحق

يقول ملخص هذي الآراء : —

لست أتقص أساطين الفلسفة . ولا أرمي الى التفوق على ما أوردوه في (قسطاس الحق) ولكنني بكل تواضع أقول أن للحق أكثر من قسطاس واحد . له قسطاسات متنوعة النصر ، متباينة مدى الحكم . وكل قسطاس يصلح ضمن دائرة اختصاصه

أولاً — الحواس : العين ترى والأذن تسمع ولكن العين لا ترى كل شيء . ولا ترى الى ما هو أبعد من مداها . فهذا اختصاص وذا حدود في دائرة اختصاصها وضمن حدودها هي قسطاس الحق فتحكم براحة ضمير أن الورق في يدينا أبيض . والحبر عليه أسود . لكن ليس للعين أن تحكم من أين جلبنا الحبر ، ولا كيفية تركيبه

والأذن لا تسمع كل صوت . ولا تسمع الى ما هو أبعد من مداها . ولكن ضمن حدود اختصاصها ومداها تدرك الحق وتجدنا بأن هذا صوت الطبل وذاك صوت العصفور

لكن حكمها لا يتناول تشريح حنجرة العصفور ولا ماهية الطبل وما قلناه في حاستي البصر والسمع يمكن تطبيقه على سائر الحواس . فالحواس قسطاس الحق في دائرة اختصاصها ومداها

ثانياً — العقل : وهذا قسطاس آخر للحق . هو غير الحواس . وقد يتناول منها ، ويكمّل ما نقصها ، أو يتسنّى الى أبعد ما أدركت هي . فالعقل فهم ان الشيء لا يصنع نفسه . لان ذلك يستلزم وجوده قبل وجوده . ولا يكون الشيء موجوداً ومعدوماً في وقت واحد باعتبار واحد. كذلك يحكم العقل بأن الجزء أصغر من الكل . والبصر يشاركه في هذا الحكم . فالعقل قسطاس ضمن دائرة اختصاصه . وكونه قسطاساً لا يناقي وظيفة الحواس . بل يكمّلها ويؤاخيها

ثالثاً — الاختبار : والاختبار قسطاس . وهو يعلمنا ان الدخان لا يكون دون احتراق فحيث رأينا الدخان علمنا ان هنالك احتراقاً . ولكن قسطاسية الاختبار لا تعارض قسطاسية الحواس ولا قسطاسية العقل . بل اني أرى ان الاختبار وليد الفريقين ، العقل والحواس

رابعاً — العلم : والعلم قسطاس . وهو يحكم ان اللون ليس في المادة المنظورة بل في البصر ، فالمادة الخضراء فيها كل الالوان الا الاخضر . والحمراء فيها كل الالوان الا الاحمر . ويعلمنا العلم أن القمر يسير من الغرب الى الشرق والعين تراه يسير من الغرب الى الشرق . وان القطار يسير والاشجار الى جانبيه ثابتة والبصر يقول بالخلاف

فليس العلم منافياً العقل ولا الاختبار ولا الحواس . بل هو نتيجة هذي الثلاث ومتممها

فالقول بمضادة العقل للحس ، وكون هذا قسطاس الحق دون ذلك هو ، في ما أرى ، قول غير رشيد . فكل من هذي الاربعة الحس والعقل اختبار والعلم قسطاس في دائرة اختصاصه . بقي أن وراء دوائر كل هذي القسطاسات رحاب اللامتناهي

هنا ليس من قسطاس للحق . لان دوائر كل قسطاس هي ضمن تلك الرحاب . فلا يمكن ان نتناولها . غير المحدود — كالفضاء مثلاً « Space » — هو وراء كل حس وعقل واختبار وعلم الا اننا مرغمون على الاعتراف بضرورة وجوده . فهو واجب الوجود في دائرة فهمنا . ولا يمكن تصور عدمه . فهو لا يُدرَك ولا يُنكَر